

## **موقع إيكجان بين المسح الأثرى والنصوص التاريخية**

**إعداد الأستاذين :**

**د. محمد الطيب عقاب - رئيس فرقة بحث**

**[ آثار الدولة الفاطمية في الشرق الجزائري ]**

**د. عز الدين بويحيوي - عضو مشارك في الفرقة**

موقع إيكجان بين المسح الأثري  
والنصوص التاريخية

د. محمد الطيب عقاب  
د. عز الدين بويحيوي

### توطئة :

يبدو لأول وهلة للباحث والدارس أن مقر الدولة الفاطمية الرسمي هو مدينة رقادة التونسية، في مرحلتها الأولى، أو ما يعرف لدى المؤرخين بالمرحلة الإفريقية. ثم بجده - دائما في هذه المرحلة - في كل من المهدية والمنصورة نسبة إلى أميرها المنصور الفاطمي، سنوات 334 - 341 هـ - مع العلم أنه سبقه إلى ذلك أميران هما عبيد الله المهدي، الذي دامت فترة حكمه عدة سنوات، تقارب الثلاثة عقود، وأبو القاسم محمد، المعروف بالقائم إلى سنة 334 هـ. وجاء بعد المنصور ابنه المعز، صاحب الحظ الذي قاده إلى مصر واتخاذ القاهرة عاصمة له ولمصر بدءا من سنة 362 هـ.

وإذا بحث في أسباب الوجود الفاطمي في الجزائر أو في كل المغرب الإسلامي، سيجد الباحث أن الدافع الرئيس هو استعادة الحكم الضائع من أيدي أهل البيت في الظاهر، وأن البحث عن ذلك كان بعدة وسائل وأدوات، بل وآليات لإسقاط الحكم العباسي في الشرق والمغرب معا.

ويبدو أن المجتهد في ذلك لم يفلح، فسعى إلى وسيلة أخرى توصله إلى الهدف المنشود، وليس هناك من سبيل سوى الاتصال بالمغرببة أثناء موسم الحج، والظاهر أن مثل هذا العمل بدئ فيه مبكرا، إذ تشير بعض المصادر إلى أن بعض الزعماء الروحيين من الشيعة كانوا في إقليم قسنطينة منذ سنة 277 هـ، مما يدل على نضوج الفكرة بين الطرفين الشيعي والمغربي، الغاضب من جور الأغلبية وبالتالي سهل الأمر لصاحب الدعوة المتمثل في أبي عبد الله الشيعي، صاحب الوظيفة السامية والحساسة في الإدارة العباسية بالشرق، وهي الإشراف على أمور التجارة ومن هم في

شاكلتهم، إنها الحسبة، والتي سمحت له بالتعرف على الحبيج المغربي والاحتكاك بهم دون شك، وخاصة إذا علمنا أيضا أن مذهب الروافض وصل المغرب كله قبل التاريخ المذكور (277 هـ).

وهل يمكن اعتبار سنة 277 هـ هي تاريخ دخول الفاطميين إلى موقع إيكجان؟ وقبل ذلك هناك بعض الأسئلة التي يجب أن تثار، مثل كيف وصل الفاطميون؟ ومع من؟ وفي أي إطار؟ وغيرها من الأسئلة الأخرى التي يبحث البحث عن إجابتها في مظان المصادر التاريخية. ولكن يمكن القول مبدئيا أن الفاطميين وصلوا إلى منطقة سطيف و أحوازها من قبيلة كتامة الكبرى في التاريخ المذكور أو في سنة 280 هـ ( حسب ابن الأثير - الكامل / 6 / 127 - ... )

وبدون شك أن يكون الشيعي قد اطلع على الوضع المزري السائد في منطقة المغرب الإسلامي (حسب رأي ابن خلدون الذي سيرد ذكره فيما بعد)، وأن الأغلبية بسطوا نفوذهم التعسفي والقسري، وأن ذلك دليل على ضعفهم، وهوان قوتهم، فاستعرضوا عضلاتهم أمام الشعب المغلوب على أمره. إضافة إلى إدراك الشيعي بأن الأهالي يرحبون بزعيم يخلصهم من ذلك التعسف، خاصة وأن الرستميين سبقوهم إلى ذلك، فرأوا نتيجتها الإيجابية التي تحصلوا عليها، فكونوا دولتهم بمساعدة الأهالي، وبذلك أقدم الشيعي على مثل تلك التجربة.

إذن، لا غرو أن عبد الله الشيعي قد أدرك كل هذه العوامل، والعوامل الأخرى لتأسيس الحكم الذي طالما راوده، كيف لا وهو القائم على أعلى وظيفة في الإدارة، القائمة على الاتصال بالناس والاحتكاك بهم، التي تمده بأسرار السياسة والسياسيين والأمور الاجتماعية في مختلف الدول، إضافة إلى ما امتاز به - بلا شك - من اللباقة وحسن التدبير في مثل هذه الأمور المتصفة بالعلاقات العامة بين الناس، والتي تجعله يكتسب صفات الحزم والعزيمة، مع مزجها بالليونة والمودة، لاكتسابهم إلى صفه.

من هذه المنطلقات، يتضح أن الشيعي قد اكتسب أصدقاء له، وأن دعوته لقيت استجابة كبيرة من طرف سكان كتامة الكبرى، التي كانت تمتد

من بجاية غربا إلى بونة ( عنابة ) شرقا، من أجل رفع الغبن المفروض عليهم من طرف الأغلبية. ولكن ونظرا لغرابة المذهب الذي كان يحمله المهدي، وهو المذهب الشيعي أو الإسماعيلي على وجه الدقة، خرج عليه أحد زعماء المذهب السني، وهو أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفراني، لمحاربته فشدد عليه الخناق حتى كاد يقضي على أسس الدولة الفاطمية وهي في تونس، ولكن ذلك لم يتحقق لأبي يزيد (ابن الأثير — الكامل / 7 / 45 - 49).

وقد لا يهمنا هذا الموضوع الآن، وأن الذي تجدر الإشارة إليه هو كيف نتوصل إلى موافقة النصوص التاريخية بالموقع الأثري في مدينة بني عزيز التي يوجد بها موقع إيكجان الأثرى في جبلها؟ وهل هو الذي نتكلم عنه المصادر التاريخية، أم إيكجان فج الأخيار؟

وإذا كانت الآثار المعثور عليها في الموقع الأول تعود إلى الفترة الأولى للفاطميين تؤكد تموقع هؤلاء فيه، فإن الموقع الثاني لم يخضع بعد للمسح الأثرى للتأكد من أهميته التاريخية والأثرية، من خلال ما سيمده لنا الموقع من المعلومات المادية.

وعليه يمكن لنا الآن أن نتكلم عن إيكجان بني عزيز من خلال محورين اثنين، هما: محور الاطلاع الميداني من خلال معاينة الموقع وما يوجد على سطحه من بقايا أثرية، توحى بأهمية الموقع من الناحية الأثرية، ومع ذلك يبقى العمل ناقصا ما لم تجر في الموقع بعض التنقيبات الأولية لتحديد أكثر دقة أهمية الموقع.

والمحور الثاني هو مطالعة أمهات الكتب التاريخية لاستقراء ما تتضمنه تلك المصادر من المعلومات، وحتى وإن بدت متناقضة أحيانا.

فبخصوص الموقع المتصل بدائرة بني عزيز، والذي خضع لزيارة الفريق الأثرى من قسم الآثار — جامعة الجزائر، تبين للفريق أنه ذو أهمية بالغة، جديرة بالعناية والبحث، إذ يتوفر على كثير من المعطيات الأثرية، التي تجعل الموقع يحتاج إلى وسائل علمية كبيرة لاستجلاء الحقائق التاريخية، وعليه وضع الفريق التقرير الأولي التالي:

### الموقع:

تقع إيكجان بمنطقة دائرة بني عزيز ( ولاية سطيف )، بعيدا عن العلمة بحوالي 30 كلم، وعن سطيف بحوالي 61 كلم. وتم تحديد إحداثياتها (1) عند نقطتي 355 و 356 شمال / جنوب، و 763 و 765 شرق / غوب، بالنسبة للمدينة بني عزيز، مع العلم أنه أمكن تحديد إحداثيات الموقع المبدئية كالتالي 357 / 356 شمال / جنوب و 766 / 769 شرق / غرب، وهذا بالنسبة للآثار البارزة على سطح الموقع حاليا فقط.

### الوضع الحالي:

لم يبق من هذا الموقع إلا بعض أجزاء من السور الدفاعي، الذي كان يحيط " بالمدينة " ؟ أو " القلعة " حسب الآثار المتوفرة داخل السور، وهو يمتاز بسمك متفاوت الحجم، سواء طولا أو عرضا، فعرضه يتراوح بين متر ونصف إلى مترين ، أما أعلى نقطة لارتفاعه فلا تتعدى مترين وخمسة وثلاثين سم. كما يتوفر الموقع على بقايا أثرية عديدة على كل سطحه، وخاصة على طول المنحدر، خاصة منها القطع الفخارية والخزفية.

يتوسط الموقع حاليا بعض البيوتات والمساكن لبعض العائلات، بالإضافة إلى خزان للمياه داخل المقبرة التي لا يتجاوز عمرها 70 عاما. ويمكن الاعتقاد أن المقبرة الأصلية توجد خارج السور في اتجاه الشرق بنحو 100 م على الأكثر.

والموقع، إذا ثبتت صحته، هو كله الآن مشجر بالزيتون إبان سنوات السبعينات، الأمر الذي يصعب من عمل الفرقة لإجراء أسبار لمعرفة محتواه الأثري.

تعريف الأثر:

لم يتمكن الفريق الأثري، في المرحلة الأولى، من معرفة شكل الموقع، رغم تتبعه لأهم الأجزاء الباقية والبارزة عن السطح، والسبب يرجع إلى نقص في الوسائل القياسية، وإلى الصور الجوية، فضلا عن احتواء المنطقة على أشجار الزيتون الحديثة، مع ذلك فقد أمكن للفريق أن يحدد الموقع الذي له شكل غير منتظم، تبعا لتضاريس الموقع والمنطقة، وذلك السور الدفاعي المتبقي، والمبني في أغلبه بالحجارة العادية العديمة التهديب، وأحيانا بطريقة الدبش، غير أن أهم ما في السور احتواؤه على المادة الماسكة للحجارة وهي الملاط المعالج والمركب من عدة مواد، مما يوحي بأهمية الموقع من الناحية التاريخية. هذا إذا أضفنا إلى ذلك المعثورات الفخارية والخزفية، خاصة منها المبرنقة، و واحدة منها ذات البريق المعدني.

ولأن أجراء التنقيبات في الموقع سيكشف للفريق مواد أخرى، منها على الخصوص قطع الزجاج والخزف المعماري، وحتى بعض أجزاء من أسوار البيوت، وما إلى ذلك من المقومات الاجتماعية الأخرى.

أما النصوص التاريخية الموجودة في مظان المصادر، فهي متباينة فيما بينها وغير دقيقة ولا متفقة، إلا في مسألة واحدة هي المنطقة الشرقية الواقعة بين بجاية وبونة.

وإذا بدئ في استخراج النصوص التاريخية، فإن أول مصدر يتوجب على الباحث الاطلاع عليه هو كتاب الطبري المعنون بـ " تاريخ الأمم والملوك " ( توفي مع بداية القرن 4 هـ )، والذي أشار فقط إلى جهود الفاطميين خلال سنوات 300 - 302 هـ، والصراع القائم بينهم وبين عامل العباسيين في برقة ومصر، للاستحواذ على المنطقة، بمعية المغاربة والبربر، وهذا يعني أن بواذر الاتصال بين الطرفين كانت قبل التاريخ المذكور، وربما تعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومع ذلك لم يشر إلى الموقع الذي تمركز فيه الفاطميون في كتامة، القبيلة التي كانت إلى جانب

الشيعة، هذا إذا علمنا أنه من المعاصرين لتلك الأحداث، غير أنه يمكن تبرير ذلك بعدم نضج المعلومات عند المشاركة. وبذلك لم يجازف في ذكر تفاصيل الأحوال والقضايا السياسية بين الطرفين (ج 1 / 5 - 21). ورغم بتر المعلومات التاريخية عن الموضوع إلا أن بعض المصادر بقيت تعترف من الطبري، مثل صلة تاريخ الطبري لابن سعد (ت. في ق 4 هـ)، الذي أضاف بعض الحقائق التاريخية حول العلاقات العضوية القائمة بين قبيلة كتامة والشيعة الفاطميين، وهي أن تلك العلاقات أفلقت الساسة الأغلبية في تونس، مما دفعهم إلى طرد زعيمهم الشيعي أبي عبد الله من القيروان (ص 32 - 37). وهذا يعني أن مهمة الشيعي بدأت في تونس قبل أن يحل بقبيلة كتامة، ولربما يرجع ذلك إلى نشاطه المكثف لإثارة الأمراء الأغلبية، وإلى القاعدة الخلفية التي كان يعتمد عليها في كتامة، بحيث لم يجد أية صعوبة في اتخاذ القرار بالتوجه إليها والاستقرار فيها، بل والاستجداء بها، بعد أن حاز على تقفهم وولائهم، مما مكنه - أي الشيعي - لأن يحارب الدول القائمة بالمغرب، خاصة الواقعة ويأتي كتاب آخر على منوال الصلة، وهو تكملة الطبري، الذي ركز على جهود الفاطميين في التوجه إلى المشرق، وكان المؤرخين كانوا متخوفين منه من أن يسقط الحكم العباسي، أو كأنهم يندرون العباسيين وخطر الشيعي عليهم. (ج 1 / 19 - 23).

ويهمنا هذا الأمر بالذات، لأن المؤرخين - حسبما يبدو من حديثهم، فهموا إستراتيجية الشيعي مع أهالي كتامة، الذين اتخذهم مطية للوصول إلى سدة الحكم في المشرق، ولم يهتموا كثيرا بما كان يجري بالمغرب، إلا عرضا. وهذا ما يفهم من قول المسعودي (ت. في نهاية ق الرابع هـ -). الذي أوضح أن الشيعي اعتمد على سكان كتامة لإقامة دعوته، وخاصة بعد قتله عبد الله الشيعي (في كتابه التنبيه والإشراف / ص 288 - 289). كما تجدر الإشارة إلى الشيعي وصاحب الحمار أبي يزيد بن مخلد اليفراني.

ورغم وجود كتاب معاصر للفاطميين في المغرب، وهو لأحد المؤلفين البارزين في الحكم الفاطمي، المعروف بالأستاذ جوذر الصقلبي، إلا أنه لم يشر إلى اسم إيكجان، الذي نشأت فيه الدول الفاطمية، ولكنه ذكر

دواليب الحكم والصراع القائم بينهم وبين أبي يزيد، وكذا العلاقات الموجودة مع الدول الكبرى بالمنطقة بما فيها جنوب أوروبا.

ويعتبر كتاب ابن الأثير ( ت. في بداية ق 7 هـ ). الكامل، الوافي لأخبار الفاطميين بالمغرب الإسلامي، وكذلك يمكن القول أنه الوحيد الذي أشار إلى اسم فج الأخيار بجبل كتامة ( ج 6 / 125 - 127 ). وفي هذا الكتاب أيضا أخبار منفردة ومتنوعة عن الفاطميين، رغم قصرها وترتيبها الزمني، إلا أنها مفيدة للباحث، تفيده في تحديد الموقع الحقيقي لاسم إيكجان، بعد معاينة الموقع الثاني، وهو فج الأخيار قرب سرج الغول.

وفي كتاب أخبار ملوك بني عبيد، لا بن حماد ( ت. مع بداية ق 7 هـ ) لم يذكر صراحة اسم إيكجان، إلا مرة واحدة، عندما قتل صاحب الحمار، بكتامة جنوب المسيلة ( ص 37 ). وابن حماد اهتم كثيرا بحياة الفاطميين ونمط معيشتهم ومختلف الطرائق المعيشية عندهم، وبالبطش المتعودين عليه.

ويمكن اعتبار كتاب البيان المغرب، لا بن عذارى المراكشي ( ت. في ق 7 هـ )، مستوفيا وشاملا لأخبار الفاطميين في المغرب كله، ومبرزاً نجاحهم فيه، والدوافع التي جعلت قبيلة كتامة تقف إلى جانبهم هو تعسف الأغلبية ضد السكان، وخاصة منهم سكان الإقليم الغربي بالنسبة إليهم. ومع ذلك يبقى موقع إيكجان غير محدد لديه، وإنما هو إقليم يمتد بين بجاية وعنابة.

وبما أن جل المصادر التاريخية مشابهة في إيراد بداية الفاطميين في إيكجان التابع لقبيلة كتامة، وحتى هذا المعنى ينطبق أيضا على ابن خلدون ( ت. مع بداية ق 9 هـ )، الذي قال مثلا ( ... هذا القبيل [أي كتامة] من قبائل المغرب ... بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا وجبل أوراس شرقا من ناحية القبلة ... ومجالات تقبلهم مثل إيكجان و سطيف ... وجيجل ... ) - العبر، الجزء 3 / 754 - 760 .

والملاحظ في هذا النص ثقة الفاطميين في أهالي شرق الجزائر، حتى لا نقول سكان إيكجان، باعتبارهم أصحاب قوة ورباطة جأش، إضافة إلى ما امتازت به منطقتهم من المسالك الوعرة، فضلا عن كثرة عددهم بلا شك، الأمر الذي مكن الفاطميين من القضاء على كل الدول الموجودة بالمغرب كله شرقا وغربا.

ويلاحظ أن ابن خلدون جعل قبيلة كتامة صاحبة الفضل الأكبر لقيام الدولة الفاطمية في منطقة إيكجان قرب سطيف، وبالتالي عرفت المنطقة بعض النمو الحضاري الذي جسده بعض المظاهر الصناعية والمعالم الأثرية على السطح، دون اللجوء إلى التنقيب عنها كما رأينا.

ولم نذكر هنا كتب الأنساب التي اهتمت بنسب عبد الله الشيعي، وغيره من الشخصيات التي في مقامه السياسي والتاريخي، والذين قادتهم الظروف السياسية إلى موقع إيكجان، بعد أن مهدوا لذلك بالمشرق مع الأهالي.

وكنا نتمنى أن نجد بعض التحديدات عن موقع إيكجان في مصادر الجغرافيا ولكنها جاءت على شاكلة كتب التاريخ تقريبا، إذ تضمنت معلومات عامة، مثل التي وردت في كتاب الإصطخرى (ت. في ق 4 هـ) المسالك والممالك ولكنه حدد قبيلة كتامة بسطيف التي مركزها إيكجان وليس فج الأخيار.

والغريب في الأمر أن ابن حوقل، رغم ذكره بل تحمسه لدعوة المهدي الشيعي، لم يفصل القول في العلاقة القائمة بين الفاطميين وأهل كتامة، وبالأخص الإشارة إلى موقع إيكجان، خاصة إذا علمنا أنه من معاصري نشأة الفاطميين بالمنطقة.

ويأتي كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، لصاحبه البكري (ت. أواخر ق 4 هـ) من أهم الكتب الجغرافية الخاصة بمنطقة المغرب، كون صاحبه مغربيا، ومعاصرا متأخرا، ونعني بذلك أن المعلومات تكون قد نضجت وأصبحت معروفة لدى العام والخاص ومتداولة بينهم، ومع ذلك يبقى موقع إيكجان غير محدد عنده.

ويمكن الاستغناء عن المراجع الحديثة لأن أصحابها حاولوا فهم بعض الخيوط المكونة للوجود الفاطمي بالمغرب الإسلامي، ورسم حدود الإقليم الفعلي للفاطميين، بعد أن نسجوا الترتيبات التاريخية للوصول إلى نتائج قد تكون مفيدة للباحثين عن موقع إيكجان، وغيره من المواقع الأخرى التي كانت بمثابة الدعامة الأساسية لاستمرار الحكم الفاطمي ليس في المغرب بل وحتى في المشرق أيضا.

والخلاصة من كل ما تقدم، هو أنه لا بد من إجراء التنقيبات الأثرية، إذا ما أريد التوصل إلى تحديد موقع إيكجان في علاقته مع الفاطميين من جهة، ومن جهة أخرى لمعرفة أي الموقعين يعود إلى فترة نشأة الدولة الفاطمية مع أهالي المنطقة، وهذا لن يتأتى إلا بعد معاينة موقع آخر وهو فج الأخيار، ثم إجراء تنقيبات فيه أيضا. وإلا سنبقى حبيسي النصوص التاريخية الغامضة.

د. محمد الطيب عقاب

د. عز الدين بويحيوي